الفصل الأول

الفكر الدينى والحقائق الغائبة

- تجديد الفكر الدينى
- مقاصد الشريعة
- الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع
- الدين والفلسفة
- الدين والخرافة
- السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة
- الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر
- قل إنما أنا بشر مثلكم
- الإيمان والحب

تجديد الفكر الدينى[1]

يطلق الفكر ويراد به بوجه عام جملة النشاط الذهنى ، كما يراد به أيضًا حركة التصورات والمفاهيم فى العقل الإنسانى . وهذا يعنى أن الفكر يمثل نشاطًا وحركة مستمرة ، فإذا توقفت هذه الحركة فإن ذلك يعنى توقف حياة الإنسان أو غيابه عن الوعى . ولعل ذلك ما دعا الفيلسوف المعروف ديكارت إلى اعتبار الفكر مساويًا للوجود حين قال عبارته الشهيرة (أنا أفكر ، إذن أنا موجود) . فإذا وصفنا الفكر بأنه علمى فمعنى ذلك أنه فكر منظم . فالإنسان حينئذ لا يترك مفاهيمه وتصوراته حرة تحوم فى نفسه كيفما اتفق ، وإنما يقودها بكل حزم على أسس منهجية إلى هدفه الذى هو العلم . وعندما نصف الفكر بأنه دينى فلا يعنى ذلك أنه فكر مضاد للعلم وإنما هو أيضًا فكر منظم يقوم على أسس وقواعد تؤدى إلى معلومات دينية صحيحة.

والتجديد فى الفكر سنة من سنن الحياة ، وبدون هذا التجديد سيبقى كل شىء على حاله دون تغيير ، وبذلك تتجمد الحياة . وهذا أمر مضاد لطبيعة الحياة ذاتها . ونظرًا إلى أن الفكر الدينى يعد جزءًا لا يتجزأ من الفكر الإنسانى ، فإنه يمكن القول بأن تجديد الفكر الدينى يعد ضرورة حياتية .

ومن المأثورات النبوية المعروفة : « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »[2] . وهذا الحديث النبوى من شأنه أن يدفع علماء الدين المسلمين إلى التجديد المستمر فى الفكر الدينى ، لأن الدين بطبيعته قد جاء ليكون دينًا للحياة بكل أبعادها المختلفة ، ومن هنا فإنه لا يجوز أن ينفصل

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

عن الحياة والتأثير فيها . فإذا تم عزله عن الحياة فسيتحول إلى مجرد رسوم وطقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة .

والتجديد فى الفكر الدينى عمل يقوم به الإنسان الذى يرتاد الطريق لقومه فيرى ما لا يرون . والذين يرتادون الطريق ويتقدمون الصفوف ويكشفون معالم الطريق هم الرواد فى كل أمة وهم المجددون . وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامى العديد من هؤلاء الرواد الذين أثروا الحياة الإسلامية والفكر الإسلامى برؤاهم السديدة وأفكارهم الرشيدة .

واعتمادًا على المأثور النبوى المشار إليه وجدنا العديد من مفكرى الإسلام المستنيرين يبذلون جهودهم فى سبيل تجديد الفكر الدينى . وفى هذا الاتجاه وجدنا الشيخ أمين الخولى فى كتابه « المجددون فى الإسلام » يعود بنا إلى المؤلفين القدامى الذين كرسوا جهودهم فى قضية التجديد . ومن هؤلاء جلال الدين السيوطى (٩١١هـ) فى كتابه « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » ، والمراغى الجرجاوى (١٠٣٥هـ) فى كتابه « بغية المقتدين ومنحة المجدين على تحفة المهتدين » .

وقد بلغت فكرة التجديد للدين - كما يقول الشيخ أمين الخولى - إلى حد أن نظمت شعرًا كما نظمت متون العلوم . وإذا كان الأقدمون قد بدءوا حديثهم عن التجديد مبكرًا منذ حوالى القرن الثالث الهجرى فإنه - كما يقول أيضًا - « لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ولا اعتراض لمعترض ، ولم تعد فكرة التجديد بدعًا من الأمر يختلف الناس من حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأعراض والأوقات مما ينبغى أن تتدخره الحياة لتفيد منه فى ميادين نشاطها ، ولا تضيع الوقت والجهد فى تلك المهاترات التى تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية والاجتماعية إلى ما لابد منه من سير وتقدم وتطور ووفاء بما يجد دائمًا من حاجات الأفراد والجماعات » .

وتواصلاً مع الجهود القديمة شهد العصر الحديث الكثير من محاولات التجديد على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما ممن خصص لهم أحمد أمين كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » . ومن بين الأسماء البارزة فى هذا الصدد الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ محمود شلتوت ومالك بن نبى وزكى نجيب محمود وغيرهم كثيرون . ولكل منهم أسلوبه فى التجديد ومنهجه فى الإصلاح . ولكنهم جميعًا يتفقون فى الهدف المتمثل فى ضرورة فهم الدين على أنه دين محرك للحياة بكل أبعادها ، فهو علم ومعرفة وأخلاق وحضارة ، فضلاً عن كونه عقيدة وشريعة .

وقد ألف الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى منتصف القرن الماضى مجلدًا كبيرًا بعنوان : المجددون فى الإسلام . ولم يقتصر الأمر على المفكرين العرب . فقد انطلقت أصوات المجددين من مناطق أخرى من العالم الإسلامى . ومن هؤلاء - على سبيل المثال لا الحصر - محمد إقبال فى الهند (قبل التقسيم) فى كتابه المعروف « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » . وقد كانت آلية التجديد فى كل هذه الجهود تتمثل فى مبدأ الاجتهاد الذى يعد اليوم الفريضة الغائبة فى عالمنا الإسلامى المعاصر .

ولكن التيار الأعظم من علماء المسلمين على مر العصور وقف عقبة فى طريق أى تجديد ، ناهيك عن أى اجتهاد . ومن هنا تجمد الفكر الدينى وتجمد الاجتهاد ، ووقف الفكر الدينى عند فترات التراجع الحضارى يجتر من تراثها ويعود باستمرار إلى ما أفرزته من جمود فكرى متحجر . فالدين فى عرف هذا التيار ليس فى حاجة إلى تجديد أو اجتهاد جديد ، وذلك فى تحد واضح للمأثور النبوى المشار إليه ، وترسيخًا لهذا الفهم المتخلف فى العقول انتشرت بين المسلمين مقولات تقول : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ، « ولم يترك الأول للآخر شيئًا » .

وهذه المواقف المتحجرة تسير فى اتجاه مضاد لسنة الحياة وطبيعة الأشياء . فركب الحياة يواصل السير بلا انقطاع وعجلة الزمن لا تتوقف عن الدوران ، ولكن عقول كثير من القائمين على أمر الدين لم تعد قادرة على مسايرة الزمن ولا مؤهلة لفهم تطورات العصر . وأصبحت أصوات المنادين بالتجديد بمثابة صرخة فى وادٍ أو نفخة فى رماد .

وتقنع الغالبية العظمى من علماء الدين فى عالمنا العربى والإسلامى بما لديهم من علم قديم ورثوه عن الأسلاف ، وينامون قريرى الأعين يغطون فى سبات عميق لا شأن لهم بما يدور فى عالم اليوم ، يسخرون من دعاة التجديد ويعتبرونهم مارقين خارجين عن جادة الصواب . أما غيرهم ممن يحتكرون الإسلام لأنفسهم ويقصون غيرهم من ساحته فكل همهم هو الحصول على مكاسب سياسية تصل بهم إلى كراسى الحكم . وهكذا يتجنى هؤلاء وأولئك على الإسلام أكثر من جناية خصومه عليه .

ولا شك فى أن قعود علماء الأمة ومجتهديها عن تحمل مسئولياتهم قد فتح الباب على مصراعيه للغلاة والمتشددين والمتعصبين والجاهلين ، الأمر الذى عم بلاؤه واشتدت وطأته ، وتم اختزال الدين فى بعض الشكليات التى خرجت به عن جوهره الحقيقى فى كونه دينًا للحياة .

فهل نترك دعاة الجمود والجهل والتخلف يقودون مسيرتنا الدينية والاجتماعية ، والحضارية بصفة عامة ؟ إننا إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد فرطنا فى الأمانة وتخلينا عن المسئولية الملقاة على عاتقنا نحو ديننا وأوطاننا . ولابد لنا من البحث عن سبيل للخروج من المأزق الحضارى الراهن الذى يتوقف استمراره على استمرار سيطرة الفكر الدينى المتخلف ، الذى راح يمتد كالأخطبوط فى مجرى حياتنا وشرايين مجتمعنا .

ولعلى أسمح لنفسى بأن أعرض اقتراحًا متواضعًا فى هذا الصدد أرجو أن يكون له رد فعل إيجابى . ويتلخص هذا الاقتراح فى تشكيل مجموعة عمل من صفوة العلماء والمفكرين والمهتمين بأمر الفكر الإسلامى والمعنيين بقضايا الأمة ، وتتكون هذه المجموعة من عدد لا يزيد على خمسة عشر عضوًا ، وتتفرغ لعملها مدة كافية ، وتتاح لها كل الإمكانات اللازمة لتقوم بالمهام التالية :

أولاً : وضع خطة شاملة ومتكاملة لتجديد الفكر الدينى بصفة خاصة وتجديد الفكر بصفة عامة، وتقدم مشروعًا قابلاً للتطبيق تسترشد به الأمة فى مسيرتها الحضارية ، لإخراجها من النفق المظلم الذى يراد لها أن تظل حبيسة فيه .

ثانيًا : تحديد الآليات المناسبة للتنفيذ ، الذى يجب أن تشارك فيه جهات عديدة مثل الأزهر الشريف ووزارات الأوقاف والثقافة والإعلام والتربية والتعليم ، والتعليم العالى والتنمية المحلية والمجلس الأعلى للشباب وغيرها من جهات حكومية وأهلية أخرى .

ثالثًا : اقتراح قائمة بالموضوعات ذات الأولوية التى يمكن بحثها وإعداد دراسات جادة فيها يقوم بإعدادها صفوة من العلماء والمفكرين ، ويتم توزيعها فى مكتبة الأسرة على نطاق واسع ، وتجرى مناقشتها فى البرامج المختلفة فى وسائل الإعلام وتضمينها فى المناهج الدراسية فى المدارس والجامعات فى حملة قومية جادة للتنوير . وتتبنى الدولة تنفيذ الخطة الموضوعة على النحو المشار إليه ، نظرًا لأن الجهود الحالية - على الرغم من أهميتها البالغة - مبعثرة ومصابة بداء التشرذم فى جزر منعزلة دون أى تنسيق ، الأمر الذى يفقدها الكثير من الفاعلية والتأثير .

إن الأمر جد لا هزل فيه ولم يعد يحتمل التأخير . وفكرنا بصفة عامة ، وفكرنا الإسلامى بصفة خاصة ، فى أشد الحاجة إلى التجديد لنضخ فى شرايينه دماء ثقافة جديدة تعمل على تمكين العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة ، وتحريك الطاقات الكامنة لدى الشباب ، وتشجيع الراغبين فى العمل على المشاركة الجادة من أجل تغيير الواقع المتخلف وإنقاذ أمتنا مما يتهددها من تطرف بغيض فى الفكر وفى السلوك ، وتواكل مرذول فى ميادين العمل وفقدان لهويتها الحضارية . ولسنا فى هذا الصدد أقل من ماليزيا التى تقوم حاليًا بتنفيذ مشروع أسمته « الإسلام الحضارى » تتبناه الدولة هناك بكل مؤسساتها .

إننى إذ أطرح هذا الموضوع للمناقشة فإنى آمل أن يشترك مثقفونا وعلماؤنا فى بلورة هذه القضية وإلقاء المزيد من الأضواء عليها لنصنع معًا عملاً ننهض فيه بأمتنا ونؤدى لها بعض الدين المستحق لها فى أعناقنا .

* * *

مقاصد الشريعة[1]

يهتم كثير من المتدينين اهتمامًا كبيرًا بأداء الشعائر الدينية المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ويعتقدون أنهم بذلك قد التزموا بتعاليم الدين وأرضوا الخالق الذى ينتظرون منه سبحانه أن يجزل لهم الثواب فى الآخرة . وهذا هو مبلغهم من العلم . ولا يشغل هؤلاء أنفسهم بما وراء ذلك من مقاصد وغايات .

فتصورهم لمفهوم العبادة ينحصر فى هذه الشعائر المعروفة اعتمادًا على ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنس والجن لهدف واحد وهو العبادة لله وحده فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] . وحقيقة الأمر أن مفهوم العبادة فى الإسلام ، والذى تقصده الآية الكريمة ، يتسع ليشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، أيًا كان هذا العمل دينيًا أم دنيويًا ، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم ، فذلك كله داخل فى مفهوم العبادة .

ولا شك فى أن أداء الشعائر المفروضة أمر مهم للغاية لأن الإسلام قد قصد بها مصلحة الإنسان فى المقام الأول . فالله غنى عنا وعن عبادتنا - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - ولكنه فرض علينا هذه الفرائض تربية وتهذيبًا وارتقاء بالإنسان . فالصلاة هدفها - كما جاء فى القرآن الكريم - أن ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3] ،

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١٥/ ٩/ ٢٠٠٧ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت : آية ٤٥ .

والصيام هدفه التقوى ، أى الوقاية من الوقوع فى المنكرات ، والزكاة تطهير وتزكية للإنسان ، والحج فيه منافع دينية ودنيوية .

ولكن الإسلام ليس هو هذا الجانب الشعائرى فقط ، إنه أكبر من ذلك بكثير . فهذه الشعائر - فى حقيقة الأمر - تعد وسائل لغاية كبرى . فمن المعلوم أن الإنسان لا يعيش وحده فى هذا الكون . ومن هنا فإن علاقته فى هذا الوجود تدور فى دوائر ثلاث تنحصر فى علاقته بنفسه ، وعلاقته بالآخرين من بشر وكائنات حية وغير حية ، وعلاقته بخالق الكون وهو الله سبحانه وتعالى . وعلى الإنسان أن يبذل جهده فى سلامة هذه العلاقات واستقامتها وتحقيق المصالحة مع ذاته ومع الآخرين ومع الله سبحانه وتعالى . ومن شأن الشعائر الدينية أن تدرب الإنسان على تحمل مسئولياته فى هذا الصدد . فإذا لم تفلح فى ذلك فلا خير فيها . فقد حُكى للنبى ﷺ شأن امرأة تصوم وتصلى وتزكى ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : « **هى من أهل النار** »[1] كما ورد فى الحديث الشريف أيضًا أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[2] .

فالشعائر إذن وسائل تربوية للوصول إلى غايات أسمى ومقاصد نبيلة إذا تحققت كان لها أثرها فى نشر الأمن والسلام فى كل ربوع المجتمع .

ويمكن إجمال المقاصد الشرعية من الأحكام التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فى كلمة واحدة تعد عنوانًا على الإسلام ذاته ، ونعنى بذلك قيمة «الرحمة» التى جعلها القرآن الكريم الهدف الأسمى من الرسالة الإسلامية كلها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] ، والتى تعد على قمة منظومة القيم الإسلامية .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

(٣) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

ومن هنا اتجه الإسلام فى أحكامه إلى تأكيد أمور ثلاثة تنبع كلها من ينبوع الرحمة . ومن هذه الأمور العبادات التى شرعها الله تهذيبًا للنفس الإنسانية لتجعل من الفرد مصدر خير للمجتمع - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . أما الأمر الثانى فهو إقامة العدل بين الناس دون استثناء حتى مع الأعداء ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1] . أما الأمر الثالث فيتمثل فى تأكيد المصلحة الحقيقية للناس فى دنياهم وأخراهم . والمصلحة المقصودة هنا لا صلة لها بالأهواء والأغراض ، ولا بالمصالح الفردية وإنما تعنى الخير كل الخير بأشمل معانيه للناس جميعًا .

ومن هنا شرع الإسلام من الأحكام ما يحمى هذه المصالح التى تبلغ الحاجة إليها مبلغ الضرورة ولا تقوم حياة الناس بدونها . وهذه المقاصد الضرورية تتلخص فى خمسة مبادئ أساسية هى حماية النفس والعقل والدين والنسل والمال . وحياة الإنسان فى هذه الدنيا تقوم على هذه الأمور الخمسة التى تعد ضروريات لازمة للإنسان من حيث هو إنسان ، كما تعد أصولاً راسخة لحقوق الإنسان العامة التى ينادى بها المجتمع الإنسانى فى العصر الحديث والتى لا تتوافر الحياة الإنسانية الرفيعة إلا بها .

ويعد المقصد الأول وهو حماية النفس ، أو بمعنى آخر الحق فى الحياة ، أصلاً لكل الحقوق الإنسانية ، ولا مجال للحديث عن حقوق أخرى إذا أنكرنا على الإنسان هذا الحق . وكل إنسان فى المجتمع من حقه أن يكون آمنًا على حياته . وإذا كان الله قد كرَّم الإنسان - كما جاء فى القرآن الكريم - فإن هذه الكرامة ذات أبعاد مختلفة . فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته ، وتنطوى أيضًا على حقه فى الأمن على نفسه بصرف النظر عن جنسه أو لغته أو معتقده. والقرآن الكريم يجعل العدوان على فرد واحد بمثابة عدوان على البشرية كلها .

---

(١) سورة المائدة : آية ٨ .

وإذا كان تقدير الإسلام لصيانة حياة الإنسان على هذا النحو فإن الهدف لا يتحقق إلا بضمان صيانة العقل الإنسانى الذى به يتم العمل على صيانة الحياة على أفضل الوجوه .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالحفاظ على العقل الإنسانى وحمايته من العبث به بأى شكل من الأشكال ، ولا يكتمل الحفاظ على العقل إلا بضمان حق الإنسان فى الحرية . فالحرية هى قوام العقل . وافتقادها يعنى إلغاء دور العقل . وإلغاء دور العقل يؤدى إلى تخلف الفكر وبالتالى يؤدى إلى تخلف المجتمع . ومن أجل ذلك فإن حفظ العقل يعنى ضمان الحرية للعقل وحمايته من أى عدوان على حقه فى التفكير والتعبير .

والحفاظ على العقل لا يكتمل أيضًا إلا بضمان التعليم للإنسان لتتسع مداركه ويتسع أفق الرؤية العقلية لديه ، وبالتالى يكون قادرًا على المشاركة الفعالة فى تنمية المجتمع وتقدمه وازدهاره ، ويكون أيضًا جديرًا بخلافته لله فى الأرض وإعمارها بالعلم وصنع الحضارة فيها .

والعقل من جانب آخر هو الذى يرشد الإنسان إلى الدين . والدين يعد نزعة فطرية أصيلة فى نفس الإنسان . واختيار عقيدة إيمانية معينة حق أصيل من حقوق الإنسان فلا إكراه فى الدين - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] . فحرية الاختيار مكفولة ولا يجوز أن يتدخل أحد فى حرية الإنسان واختياره لعقيدته . وذلك مبدأ ثابت فى الإسلام يضمن حرية الاختيار للمعتقد الدينى دون تخويف أو إكراه . ومن هنا يفهم حرص الإسلام على جعل حفظ الدين وحمايته ومنع العدوان عليه حقًّا أصيلاً للإنسان ومقصدًا أساسيًّا من مقاصد الشريعة الإسلامية التى ترفع لواء التسامح الذى لا نظير له فى السابق ولا فى اللاحق .

(١) سورة الكهف : آية ٢٩ .

أما المقصد الرابع من مقاصد الشريعة الإسلامية فهو حفظ النسل ويعنى بصفة عامة المحافظة على النوع الإنسانى ، كما يعنى بصفة خاصة المحافظة على الأسرة التى تعد الخلية الأولى فى تكوين أى مجتمع إنسانى سليم ، والزواج يعد السبيل الوحيد لتكوين الأسرة فى الإسلام . وحتى تنشأ الأسرة فى جو من الطمأنينة والاستقرار جعل الإسلام الزواج يقوم على علاقة « **المودة والرحمة** » حتى يتهيأ للأطفال مناخ صحى لتربيتهم تربية سليمة ليكونوا بعد ذلك عناصر قوية وفعالة فى المجتمع .

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الإسلام لا يجوز اختزاله فى بعض الجوانب وإهمال الجوانب الأخرى . فالإسلام كل لا يتجزأ ، ولا يكتمل إسلام المرء إلا باكتمال العناصر الأربعة التى تشتمل عليها والتى تتمثل فى العقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة . إن الإسلام ليس لِحَى تطول أو تقصر وليس جلبابًا له مواصفات معينة وليس دروشة فارغة أو ذهولاً عن الدنيا وما فيها وليس نقابًا يلغى كيان المرأة .

إن إدراكنا الواعى بمقاصد الشريعة الإسلامية من شأنه أن يحرك المياه الراكدة ، ويحيى الأمل فى النفوس المحبطة ، ويحفز الهمم ، ويوقظ الغافلين ويدفع الكسالى إلى العمل المثمر .

وتأكيدًا من الإسلام على الاهتمام بالدنيا وإعمارها جعلت الشريعة الإسلامية حماية المال أحد مقاصدها . فحب المال وامتلاكه نزعة فطرية لا يجوز مصادرتها . وهذا حق من حقوق الإنسان . وحماية هذا الحق أمر لا يجوز التفريط فيه . فالمال عصب الحياة ، ولا يمكن أن تتقدم حياة الناس وتزدهر بدون المال .

* * *

الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع[1]

من المأثورات النبوية التى يعرفها طلاب الكليات الدينية قصة معاذ بن جبل عندما أرسله النبى عليه الصلاة والسلام قاضيًا إلى اليمن . فقد سأله كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال: بكتاب الله . قال: فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال: فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، أى لا أقصر . فأثنى الرسول على معاذ ويروى أنه قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله[2] .

ومن المعروف أن النصوص التى يرجع إليها الفقهاء محدودة ، ولكن وقائع الحياة ومستجدات كل عصر لا تنتهى ، ومن أجل ذلك فإن إنزال النصوص على وقائع الحياة يتطلب عقلاً راجحًا وأفقًا واسعًا وفقهًا واعيًا . وقد أدرك علماء الأمة وفقهاؤها ذلك جيدًا منذ الصدر الأول للإسلام ، وأعملوا عقولهم فى فهم النصوص من جانب ، وفى إنزالها على وقائع الحياة من جانب آخر . والتمكن من هذين الجانبين يعد أمرًا ضروريًا للتوصل إلى رأى فقهى سديد .

وعلى هذا الأساس انفتح الباب واسعًا أمام المجتهدين الذين قاموا بمهمتهم على خير وجه . ونظرًا لأن العقول تتفاوت والأفهام تختلف فى إدراكها وتصوراتها كان من الطبيعى أن يكون هناك اختلاف فى الآراء بين المجتهدين على مر العصور . ومن هنا نشأت مذاهب الفقه الإسلامى المتعددة . وكان فى ذلك تيسير على جمهور المسلمين ، وانتشرت بينهم العبارة المشهورة « اختلافهم رحمة » .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢/ ٨/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

وليس هناك حرج من أن يتخير المرء ما تطمئن إليه نفسه من الآراء المتعددة للفقهاء فى المسألة الواحدة . فالأمر فى النهاية متروك لهذا الاطمئنان القلبى الذى عبر عنه الرسول الكريم بقوله : استفت قلبك[1] .

وهكذا كان مبدأ الاجتهاد فتحًا جديدًا فى تاريخ التشريع الإسلامى ، وهذا ما جعل المفكر الإسلامى المعروف محمد إقبال يصف الاجتهاد بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام . وتشجيعًا من الإسلام على ممارسة الاجتهاد فى المجتمع الإسلامى قرر النبى ﷺ أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران[2] .

والاجتهاد فى الإسلام مبدأ مستمر على مدى الأزمان ، وليس خاصًّا بفترة زمنية معينة ، والفقهاء فى كل العصور مطالبون بالاجتهاد دون توقف . وإذا كان صاحب الشريعة قد فتح لنا باب الاجتهاد على مصراعيه فليس من حق أحد كائنًا من كان أن يغلق هذا الباب . فإغلاقه يعد إغلاقًا لرحمة الله ، وإغلاقًا للعقول ومصادرة على حقها فى الفهم والتفكير . وهذا يعنى ترك الأمور للتقليد : تقليد الأسلاف فيما توصلوا إليه من فهم كان ملائمًا تمامًا لعصورهم وملبيًا لحاجاتهم .

ومن الحقائق التى لا مراء فيها أن الحياة متجددة ، فالتجديد سنة الحياة وقانون الوجود ، ولا يوجد شىء يبقى على حاله ، فحتى خلايا جسم الإنسان تتجدد بصفة مستمرة . وقد أراد الإسلام لنا أن نمارس الاجتهاد لنواكب متغيرات كل عصر . ونحن نعلم أن الإمام الشافعى عندما جاء إلى مصر واستقر فيها بدأ يعيد النظر فى الآراء والفتاوى التى قال بها حينما كان فى بغداد . لأن الفتوى يجب أن تراعى أعراف كل قطر من الأقطار . وفى هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين : « من أفتى الناس بمجرد النقول من الكتب على اختلاف أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين » .

---

(١) رواه الدارمى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه ونصه : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

ولكننا - للأسف الشديد - تركنا الاجتهاد ولجأنا للتقليد فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاجتهاد من أى وقت مضى . والملاحظ أنه حتى يومنا هذا نجد فقهاءنا حين يبحثون عن حل شرعى لمشكلة جديدة فإنهم يبحثون عن حل لها لدى بعض المذاهب الفقهية القديمة وفى بطون الكتب التى ألف الكثير منها فى عصور التراجع الحضارى للأمة الإسلامية .

ومنذ أكثر من قرن من الزمان عاب الشيخ محمد عبده على الفقهاء مسلكهم هذا وتمسكهم الحَرْفى بما جاء فى هذه الكتب على الرغم من اختلاف ظروف الزمان والمكان . وفى ذلك يقول : « لقد جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين ، ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت أفكارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة » .

فهل يعقل أن تكون الحلول التى توصل إليها الفقهاء السابقون - مع احترامنا لاجتهاداتهم التى كانت مناسبة لعصورهم - هى نفس الحلول لمشكلاتنا المعاصرة ؟

إن الأمر الذى لا شك فيه أن الفقهاء السابقين - الذين أثروا الحياة الفقهية منذ قرون طويلة - لو قدر لهم أن يُبْعَثوا من جديد ويروا ما طرأ على الحياة والأحياء فى أزماننا من تطورات غير مسبوقة لتغيرت بالقطع نظرتهم للأمور ولكانت لهم وجهات نظر متجددة أكثر تطورًا وأكثر فهمًا لمستجدات العصر من كثير من فقهائنا المعاصرين .

وسأضرب بعض الأمثلة على شيوع التقليد غير المقبول لدى الكثيرين من فقهائنا إلى الحد الذى يصل إلى إلغاء عقولنا تمامًا وإلغاء وظيفتها فى التفكير . فقد بحث الفقهاء فى الآونة الأخيرة قضية اشتغال المرأة بالقضاء . وبدلاً من أن ينظروا أولاً فى وضع المرأة فى المجتمع المعاصر ومدى ما وصلت إليه من ثقافة راقية وعقلية واسعة وأفق رحب وتخصص دقيق فى جميع مجالات العلوم والفنون . بدلاً من ذلك كله لجأ كثير من فقهائنا الأجلاء إلى البحث فى بطون الكتب عما قاله أصحاب

المذاهب الفقهية الأربعة فى هذه القضية ، وتوصلوا إلى أن مذاهب الشافعية والمالكية والحنبلية لا يقرون تولى المرأة لأمور القضاء بجميع درجاته . أما بعض الحنفية فقد أجازوا أن تتولى المرأة القضاء فى الأحوال الشخصية والمدنية ولكنها ليست مؤهلة لتولى القضاء فى الجنايات ، على الرغم من عدم وجود نص قاطع يعتمد عليه يحرم المرأة من هذا الحق .

والأمر الذى لا شك فيه أن آراء الفقهاء السابقين كانت وستظل مجرد اجتهادات تخطئ وتصيب . ولم يدَّعِ مؤسسو المذاهب الفقهية أبدًا أن ما يقولونه هو الحق المطلق . فقد قيل للإمام أبى حنيفة : إن هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا مراء فيه ، فرد قائلاً : لا أدرى ، لعله الباطل الذى لا مراء فيه . ومن المأثور أيضًا عن الإمام الشافعى قوله : « رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .

والسؤال هو : أين نحن من فقه الواقع الغائب عن أذهان الكثير من فقهائنا ؟ وأين نحن من فهم الواقع الحالى للمرأة ؟. وهل المرأة اليوم هى نفس المرأة التى كانت فى عهد مؤسسى المذاهب الفقهية ؟ وأين الاجتهاد المتجدد الذى فتح بابه واسعًا صاحب الشريعة ؟ وأين نحن من فهم مقاصد الشريعة وجوهر الدين ؟. وإلى متى سنظل عالة على فقهائنا الأقدمين ؟

وفى مثال آخر دار البحث حول ختان الإناث الذى هو مجرد عادة وليس عبادة، وأن ما ورد بشأنه من أحاديث كلها ضعيفة لا تقيم حجة ولا يعتد بها . ولكن أحد الشيوخ الأجلاء عندما بحث هذه القضية لجأ إلى البحث فى ذلك عما قاله السابقون وانتهى فى ختام بحثه إلى نتيجة مروعة مرددًا فى هذا الصدد ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية من رأى يقول : « لو اتفق أهل بلد على عدم ختان الإناث فعلى الإمام أن يقاتلهم على ذلك » .

وقد تحدثت مع شيخنا الجليل - رحمه الله وطيب ثراه - عن ضرورة الاجتهاد وعدم الوقوف عند ما قاله السابقون فكان رده : عندما نكون مثلهم فى علمهم يحق لنا الاجتهاد . وهذا أمر غير قائم فى عصرنا .

وأترك الرد على ذلك للشيخ محمد عبده رحمه الله . فمن رأيه أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا معليًا لعقول على عقول . فالسابق واللاحق يستويان فى التمييز والفطرة . وهناك إمكانات متوافرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه : «فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه » .

إن الاجتهاد فى عصرنا الحاضر هو الفريضة الغائبة . وممارسة الاجتهاد أصبحت فرض عين على كل من لديه المؤهلات لذلك . ولدينا الكثير من الفقهاء المؤهلين للاجتهاد ، ولكنهم فى حاجة إلى الشجاعة مرتين . كما يرى الشيخ محمد عبده أيضًا : الشجاعة فى رفع قيد التقليد ، والشجاعة فى وضع قيد العقل الإنسانى - الذى هو ميزان الله فى أرضه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - للانطلاق إلى آفاق التقدم والارتقاء ، ليس فقط على مستوى الفكر الدينى ، بل على مستوى الفكر بصفة عامة وعلى مستوى تطوير حياتنا وتعمير دنيانا وإسعاد أجيالنا فى الحاضر والمستقبل .

* * *

الـدين والفلسـفة[1]

روى لى أحد الزملاء من أساتذة جامعة الأزهر أنه كـان منـذ بـضعة أعـوام فى زيارة لبعض البلاد الأوروبية ، وأراد أن يتعرف على أنشطة أحد المراكز الإسـلامية . وهناك التقى بمدير المركز ودار بينهما حديث سأل خلاله شـيخ المركـز الزميـل عـن التخصص الذى يقوم بتدريسه فى جامعة الأزهر . وأجابه الزميل بأنه يقوم بتـدريس علوم العقيدة والفلسفة . فرد مستنكراً : « كيف تقوم ياشيخ بتدريس الفلـسفة ؟ ألا تدرى أنَّ الفلسفة حرام وكفر ؟ » فقال له الزميل بهدوء : أنا مندهش فقط من شـىء واحد وهو : كيف أتيت أنت بهذه العقلية إلى هذا المكـان ؟ لمـاذا لم تظـل فى بـلادك ، وهناك تقول ما تشاء ؟ .

وليس هذا الشيخ وحده هو الذى يحرم تدريس الفلسفة بوصفها كفراً وإلحاداً . فهناك كثيرون من أمثاله لا يعرفون شيئاً عن الفلـسفة ولكـنهم سـمعوا أنهـا حـرام ودرجوا على ذلك .

والقضية فى حقيقة الأمر قديمة قدم الفلـسفة ذاتهـا . ويرجـع رفـض الفلـسفة وعلومها إلى الجهل بها ، والناس فى العادة أعداء ما جهلوا .

والسؤال هو : هل صحيح أن الفلسفة حرام ومعادية للدين ؟

ولتوضيح هذا الأمر نود أن نتعرف على مجمل قـضايا الـدين وقـضايا الفلـسفة ومنطلقات كل منهما، وما إذا كانت الفلسفة تؤدى بالفعل إلى الكفر والإلحاد أم لا؟.

إن هناك مقولة قديمة معروفة تعبر عن علاقة الدين بالفلسفة تقـول : الفلـسفة بنت الدين وأمُّ العلوم . وهذا يعنى أن الدين هو الأصل وهـو كـذلك بالفعـل فهـو

(١) نشر بصحيفة الأخبار فى ٣١ مارس ٢٠٠٧ .

قديم قدم البشرية ذاتها . أما الفلسفة فإنه على الرغم من أن التفكير الفلسفى بصفة عامة بوصفه ممارسة فكرية لنشاط العقل الإنسانى يعد مصاحبا للإنسان منذ نشأته فإنه يكاد يكون هناك إجماع لدى مؤرخى الفلسفة على أن تاريخ الفلسفة الحقيقى بوصفه نشاطًا عقليًّا منظمًا قد بدأ بالفلسفة اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد .

والمتأمل فى قضايا الدين يجد - على سبيل المثال - أن القرآن الكريم قد نبه العقول إلى ثلاث قضايا أساسية تعد مجالاً خصبًا للتأمل العقلى ، وجعلها تندرج فى سلسلة واحدة تسلم كل حلقة فيها إلى ما بعدها .

وهذه القضايا هى الإنسان والعالم والله . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] فالآفاق تعنى الكون أى العالم بأرضه وسمائه وما بينهما ، أما الأنفس فإنها تعنى الإنسان من بدايته إلى نهايته والذى يعد فى حقيقة الأمر محور هذا الكون ، أما القضية الثالثة فهى الحق . والحق هو الله تعالى .

وهذه القضايا التى وردت فى الآية المشار إليها هى نفس قضايا الفلسفة التى شغلت بها ولا تزال ، وإن تركز الاهتمام فى بعض العصور على بعض الجوانب أو بعض التفريعات المنبثقة عن هذه القضايا الأساسية .

والملاحظ أن ترتيب هذه القضايا من حيث ظهورها تاريخيًا على المستوى الفلسفى هو نفس الترتيب الوارد فى الآية الكريمة . وهو بالفعل التطور التاريخى . فالإنسان عندما يفتح عينيه يجد العالم من حوله بما فيه ومن فيه ، فيتركز اهتمامه وينصب تأمله على هذا العالم ، وبعد أن يفرغ المرء من تأمل هذا الآخر والتعرف عليه نجده يرتد ثانية إلى نفسه متأملاً ذاته فى محاولة للتعرف عليها ، وهذا التأمل يؤدى به - فى العادة - فى نهاية المطاف إلى أصل الوجود ، أى إلى الحق سبحانه . إنها إذن حلقات متصلة تسلم كل منها إلى الحلقة التى تليها - كما سبق أن أشرنا - .

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

وتاريخ الفلسفة اليونانية يبين لنا أن السؤال الذى كان مطروحاً فى بداية نشأة هذه الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد كان سؤالاً عن الكون من حولنا ، وبالتحديد عن المادة التى يتكون منها العالم . وقد كانت الإجابة حينذاك تنحصر فى الماء والهواء أو النار أو التراب أو كلها مجتمعة . وهذه الإجابة كانت تعبر بطبيعة الحال عن المستوى الذى وصل إليه العلم حينذاك . ولكن العلم الحديث قد تجاوز مرحلة العناصر الأربعة المشار إليها واكتشف عشرات العناصر التى وصلت إلى أكثر من مائة واثنى عشر عنصراً .

وفى عصر سقراط قيل عنه إنه نقل الفلسفة من السماء إلى الأرض بمعنى نقلها من البحث فى أصل هذا الكون إلى التأمل فى الإنسان ذاته . وقد تأثر سقراط فى هذا التحول بعبارة وجدها على معبد دلفى فى اليونان فى ذلك الوقت تقول : أيها الإنسان اعرف نفسك .

وفى عصر أفلاطون وتلميذه أرسطو أضافا إلى هاتين القضيتين وهما الكون والإنسان قضية ثالثة هى الألوهية أو الميتافيزيقيا . وبذلك اكتملت حلقات هذه السلسلة من القضايا الفلسفية . وهنا يتفق الدين مع الفلسفة فى بحث هذه القضايا . ولكن منطلقات الفلسفة فى بحث هذه القضايا تختلف عن منطلقات الدين ، وذلك راجع إلى أن الدين يعتمد فى التعرف على هذه القضايا على الوحى الإلهى ، أما الفلسفة فإنها تعتمد على العقل ومقولاته .

إن هناك إذن تشابكًا بين الدين والفلسفة ، ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن تناقضًا حاداً يتعذر تجاوزه ، وإن كانت بعض العصور اللاحقة قد عرفت بعض التيارات الفكرية والدينية التى جعلت الدين والفلسفة على طرفى نقيض . وهذا فى حقيقته تفسير خاطئ للعقل وللدين على السواء .

إن الفلسفة إذا كانت تعتمد على العقل ، والدين يعتمد على الوحى . فإن الدين والعقل من النعم الكبرى التى أنعم الله بها على الإنسان . فكيف يؤدى استخدام نعم الله إلى غضب الله ؟ .

لقد خصص الفيلسوف العظيم ابن رشد كتيباً عرض فيه هذه القضية بعنوان : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . ومصطلح الحكمة مصطلح شائع فى الثقافة العربية ويعنى الفلسفة . والشريعة تعبير عن الدين . فابن رشد يعالج فى هذا الكتيب موضوع علاقة الدين بالفلسفة .

ويصور ابن رشد فى هذا الكتيب قوة العلاقة بين الفلسفة والدين بقوله : «الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، وهما المصطحبتان بالطبع والمتحابتان بالجوهر والغريزة » .

ويقول أيضاً : « فإننا- معشر المسلمين - نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع . فالحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » .

وعندما كان الشيخ محمد عبده طالباً فى الأزهر اتصل بجمال الدين الأفغانى وداوم على حضور دروسه فى الفلسفة ، فوشى الواشون إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التى توقع فى الشبهات وتزلزل المعتقدات ، فسافر الوالد من محافظة البحيرة - مديرية البحيرة حينذاك - إلى ولده فى القاهرة فور سماعه نبأ هذه « الكارثة » ، ووصل إليه فى الساعة الثالثة صباحاً محذراً منذراً بالويل والثبور وعظائم الأمور ، كما يروى الشيخ محمد عبده فى مقال له فى صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧م . وقد هدأ الابن من ثورة أبيه وطمأنه إلى أن ما يدرسه أمور لا صلة لها بالكفر والضلال ، فدراسة العلوم العقلية تعد ضرورة لا غنى عنها لأمور الدين والدنيا على السواء .

ولا تزال هناك حتى يومنا هذا عقول متحجرة لا تريد أن ترى الحقائق فى ضوء العقل ، وكأن هذا العقل رجس من عمل الشيطان ، مع أن العقل « قبس من نور الله» واستخدامه فريضة إسلامية وعدم استخدامه يعد من أكبر الذنوب التى تؤدى بصاحبها إلى الهلاك كما يقول القرآن الكريم حكاية عن الكفار يوم القيامة : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم »[1] .

(١) سورة الملك : ١٠ ، ١١ .

إن العقل - فى حد ذاته - والدين كذلك فى جوهره لا يمكن أن يحدث بينهما صدام أو عداء . فالعقل أثر من آثار الله والدين كذلك وآثار الله لا يناقض بعضها بعضا . فقد خلق الله كل شئ بقدر وبحكمة بالغة . ولكن الإنسان - الذى منحه الله الحرية - هو الذى يسئ أحياناً استخدام نعم الله . ومن هنا يحدث النزاع والشقاق . ولكن استخدام هذه النعم فيما خلقت من أجله لا يمكن أن يقود إلى تناقض أو تنافر.

ويضاف إلى ذلك أن قلة العلم والتسرع فى إصدار الأحكام يؤدى فى العادة إلى أخطاء فوق أخطاء . ومن هنا وجدنا الفيلسوف الإنجليزى المعروف فرنسيس بيكون يقول : « إن القليل من الفلسفة قد يؤدى إلى الإلحاد أما التعمق فيها فإنه يؤدى إلى الإيمان » .

والفهم الصحيح للإسلام لا يمكن أن يؤدى إلى رفض الفلسفة أو يحرم التفلسف الذى يعنى استخدام العقل الإنسانى . ومن هنا حرص الفلاسفة المسلمون على التوفيق بين العقل والدين وإزالة ما قد يبدو من تناقض بينهما . ولم يحدث نزاع أو تنافر بين الدين والفلسفة إلا فى العصور التى شهدت تراجع الحضارة الإسلامية ، هذا التراجع الذى كان له أثره فى التحجر العقلى وضيق الأفق الذى لا يزال - للأسف الشديد - سائداً لدى البعض فى مجتمعاتنا الإسلامية . وتنوير العقول هو العلاج لهذه الفئات لإزالة رواسب الجهل وانغلاق العقول والقضاء على ضيق الأفق ليحل محل ذلك العلم والانفتاح العقلى وسعة الأفق . وبذلك تتقدم الأمم وترقى الشعوب وتشق طريقها بثقة وأمان إلى ما فيه خيرها ورفعة شأنها . ومازلنا نحتفظ بالأمل فى حدوث ذلك فى وقت نراه قريباً بإذن الله .

* * *

الـدين والخرافة[1]

عندما توفى إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام حـزن عليـه حزنـاً شـديداً كأى أب فقد فلذة كبـده . وبعـد أن واراه الـتراب ذرفـت عينـه بالـدموع ، وحـزن الصحابة لحزن الرسول . وقد تصادف فى هذا الوقت أن كـسفت الـشمس ، وهـذه ظاهرة كونية يعرفها الفلكيون منذ القدم . ولكن بعض الصحابة قال - بحـسن نيـة بطبيعة الحال - « لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم » .

وعلى الرغم مما كان عليه النبى من شدة الحزن فإن ذلك لم يمنعه مـن التـصدى لهذه الخرافة حتى لا تنتشر بين الناس ، وقال فى حسم قاطع : « **إن الـشمس والقمـر آيتان من آيات الله لا يخسفان ولا يكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد** »[2] .

لقد تذكرت ذلك عندما قرأت فى الآونة الأخيرة عن الشجرة التى وجد الناس عليها لفظ الجلالة. واندفع الناس آلافًا مؤلفة قاصدين هذه الشجرة لرؤيـة المعجـزة وربما أيضًا للتبرك بها . وعجبت كما عجـب غـيرى مـن الرافـضين للخرافـات مـن سرعة انتشار هذه الخرافة ومن سرعة تصديق الناس لها .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تروج فيها مثل هذه الشائعات . فبـين الحـين والآخر تنشر الصحف أخبارًا مماثلة عن العثور على ثمرة من ثمار الفاكهـة أو غيرهـا مكتوب عليها لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة أو اسم محمد ، وغير ذلك مـن قـصص وروايات خرافية تنتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٨/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

وكل ذلك قد يكون من قبيل المصادفات التى لا تعنى شيئاً ، وقد يكون بفعل فاعل للترويج لها والتربح من ورائها مادياً أو معنوياً . ولا شك فى أن تصديق جماهير الناس لمثل هذه الخرافات يدل - للأسف الشديد - على افتقاد العقلية الناقدة ، وبالتالى الانسياق بسهولة وراء الشائعات والخرافات التى لا نصيب لها من الحقيقة والمصداقية.

والسؤال الملح فى هذا الصدد هو : هل الإسلام كدين فى حاجة إلى مثل هذه الخرافات للدلالة على صحته ؟ إن الحقيقة التى لا شك فيها أن زمن المعجزات قد انتهى بوفاة آخر نبى أرسله الله رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الحق والعلم والمعرفة . ومن هنا نفهم لماذا بدأ الوحى القرآنى بالأمر بالقراءة والإشادة بالعلم وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل هذا العلم .

إن هذا الاهتمام ليس من قبيل المصادفة ، وإنما هو اهتمام مقصود وله دلالة كبيرة . فقد أراد الله بذلك من بادئ الأمر أن يلفت نظر الناس إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يحدثهم عن أى شىء آخر . فإذا اجتهدوا وتمكنوا من امتلاك هذه المفاتيح كان فى وسعهم بناء الحضارة - التى هى مسئولية الإنسان - كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [1] أى طلب منكم عمارتها . وصنع الحضارة فيها .

أما الكرامة التى قد تظهر على يد ولى من أولياء الله الصالحين فإن الولى الحقيقى لا يجوز له أن يفشى سر ما يظهر على يديه من كرامات أو يعلن عنها أو يتحدث بها حتى لا يغتر الناس بها وتكون سبباً فى انتشار الخرافات بينهم .

وفى مثل هذه المواقف كان الإمام الغزالى يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

(١) سورة هود : ٦١ .

وما أكثر ما ينتشر بين عامة الناس من ألوان الدجل والشعوذات ، وما يصنعه الدجالون من أحجبة وغيرها من وسائل لفك السحر وزيادة المحبة أو الكراهية أو طرد الجن الذى يتلبس بعض الأجسام وغير ذلك من خرافات لا تزال - للأسف الشديد - تجد لها سوقاً رائجة فى أوساط العامة . وهذه كلها أمور يحاربها الدين ويأباها العلم ويرفضها العقل .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام اهتماماً بالغاً بالعقل وضرورة تمكينه من أداء دوره كاملاً فى حياة الناس ، كما اهتم بالعلم وجعله فريضة من فرائض الإسلام على كل مسلم ومسلمة . وجعل مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء ، كما وصف العلماء - بالمعنى الواسع لهذا المفهوم - بأنهم أخشى الناس لله ، لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم أسرار الخلق وجمال الكون وعظمة الخالق .

وإذا كان الإسلام يشجع العلم والعلماء فإنه يرفض الجهل وما يجره وراءه من الجرى وراء الخرافات والدجل والشعوذات ، ولا يقر إلا ما يتفق مع العقل والمنطق، فهذا هو ما يليق بالإنسان خليفة الله فى الأرض الذى كلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها . ولا حضارة بدون علم ، ولا علم بدون عقل .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى دور الإسلام الحاسم فى مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده حيث « أطلق سلطان العقل من كل ما كان يقيده ، وخلصه من كل تقليد كان يستبعده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته » .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، فى وقت كان العلم لا يزال يحبو فيه لكشف أسرار الكون ، فما بالنا نحن الذين نعيش فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية ، وأى عذر لنا يحملنا على الجرى وراء الأوهام والتصديق بالخرافات ؟ .

لقد آن الأوان لأن نكف عن هذا العبث الذى يريد البعض من ورائه شغل عامة الناس بما لا يفيد والإبقاء عليهم فى حالة من التخلف والجمود . ولا خلاص لأمتنا إلا بالعلم وحقائقه والعقل ومقرراته ، مع التأكيد على أن ذلك لا يتعارض بحال من الأحوال مع تعاليم الدين الصحيحة ، لأن الإسلام - كما يقول الشيخ محمد عبده أيضاً - « لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى . فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية» .

* * *

السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة[1]

تحت عنوان « السنن الإلهية وأثرها فى نهضة الأمم » عقد قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة فى شهر أبريل ٢٠٠٨ مؤتمره السنوى الدولى الذى ناقش فيه الجوانب المختلفة لموضوع السنن الإلهية .

وقد يبدو للبعض أن هذا الموضوع لا يعدو أن يكون مجرد قضية دينية يناقشها متخصصون فى الدراسات الإسلامية . ولكننا نعتقد أنه من أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها . ولا نبالغ إذا قلنا إنه يعد من الموضوعات المصيرية للمجتمع الإسلامى . فموضوع السنن الإلهية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفاتيح الحضارة التى نبه إليها القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى .

فقد جاء الأمر بالقراءة فى أول الوحى مرتين ، وهذا يعنى قراءة الكتاب المسطور وهوالقرآن الكريم ، الذى يلفت نظرنا باستمرار إلى التدبر فى آيات الله فى الكون وفى الإنسان ، ويعنى أيضًا قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون المنظور للتعرف على القوانين التى تحكم سيره وتضبط حركته ، وهى قوانين لا تتبدل ولا تتخلف ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾[2] .

ومن هنا يمكن القول بأن السنن الإلهية تعنى القوانين الحاكمة لهذا الكون والتى قد يطلق عليها العلماء المعنيون بدراسة الكون مصطلح القوانين الطبيعية . وإن كان هذا المصطلح لا يستوعب فى حقيقة الأمر ما تعنيه السنن الإلهية من ثراء يشمل الكون المادى والإنسانى معًا .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ١٢، ١٩، ٢٦ مايو ٢٠٠٨ .

(٢) سورة فاطر : ٤٣ .

وإذا كان الله قد خلق لنا هذا الكون بما فيه من كائنات ، وبمن فيه من البشر ، وجعل الإنسان فى الوقت نفسه خليفة له فى الأرض ، فإننا - نحن البشر - نتحمل المسئولية عن هذا الكون والتعمق فى دراسته وفهم أسراره حتى ندرك آيات الله فى الكون وفى الإنسان ، ونكتشف قوانين المادة وسنن الاجتماع البشرى ، ونتعرف على السنن التاريخية . فمن شأن ذلك كله أن يجعلنا نفهم التاريخ ونعتبر بالدروس المستفادة منه ، كما يمهد لنا السبيل لفهم أسباب قيام الحضارات وسقوطها . فليس هناك شىء فى هذا الكون يسير بطريقة عشوائية أو بمحض الصدفة : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

ولا جدال فى أن السبيل إلى الكشف عن هذه السنن الإلهية ، والتعرف على آيات الله فى الكون وفى الإنسان هو العلم بجميع أبعاده . وهذا يعنى أن دراسة السنن الإلهية لا يمكن أن تتم بمعزل عن العلم . والتأمل فى الكون وفى الإنسان طريقان يوصلان إلى معرفة الحق سبحانه مصدقًا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾[2] . وهذه الآية الكريمة تشير إلى ثلاث دوائر معرفية هى الكون والإنسان والله . وهى ذات الموضوعات الفلسفية التى حاول العقل الإنسانى منذ بداية الخلق ولا يزال التعرف عليها والتعمق فى فهمها .

وإذا كانت سنن الله فى الكون تعنى القوانين التى تحكم مسار هذا الكون ، وسنن الله فى الإنسان تعنى القوانين التى تحكم الاجتماع البشرى ، فإن التعرف على هذه السنن ، والتطبيق العملى لها وفقًا للمناهج المقررة فى العلوم المختلفة ، هو السبيل إلى قيام الحضارات ونهضة الأمم وتقدم الشعوب . أما الغفلة عن هذه السنن والسير وراء الخرافات والأوهام فإنه السبيل المؤدى إلى تخلف الشعوب وانهيار الحضارات .

---

(١) سورة يس : ٤٠ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

وإذا كان الله قد علم آدم الأسماء كلها قبل أن يهبطه إلى الأرض فإن معنى ذلك أنه أعطاه مفاتيح العلم التى هى فى الوقت ذاته مفاتيح الحضارة . وعليه - وعلى ذريته من بعده - أن يطرقوا كل أبواب البحث ويسلكوا السبل الموصلة إلى الأهداف الحضارية التى كلف الله بها الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] أى طلب منكم عمارتها وبناء الحضارة فيها .

ولاشك فى أن تقدير الإسلام للعلم والعلماء من شأنه أن يدفع المسلمين إلى الاهتمام بالعلم ويحفزهم - كما كان الشأن مع أسلافهم - إلى مواصلة اكتشاف السنن الإلهية فى الكون وفى الإنسان ، والإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية وإرساء دعائم السلام والاستقرار فى العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

ومن الأمور التى نبه إليها القرآن الكريم ، والتى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان ، أن السبيل إلى سبر أغوار هذا الكون والتعرف على أسراره لن يكون متاحاً إلا لهؤلاء الذين يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل اكتشاف القوانين الحاكمة لهذا الكون وتوظيفها فى مصلحة الإنسان ، بصرف النظر عن الانتماءات العقدية أو العرقية لهؤلاء الباحثين ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

وختام هذه الآية واضح فى أن الأقوام التى تفكر وتتبع سبيل العقل وتهتدى بنور العلم هى التى ستصل إلى تحقيق الأهداف المنشودة . فالله لا يمنح أحداً من خلقه هذا الفضل مجاناً . والواقع يؤكد لنا ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، فالذى يتأمل عالمنا المعاصر الذى يشتمل على شعوب متقدمة وأخرى متخلفة سيكتشف بسهولة هذه الحقيقة . فمن يفكر ويسعى ويجتهد ويبحث وينقب سيصل حتماً إلى تحقيق ما يريد ، فتلك سنة الله فى خلقه .

---

(١) سورة هود : ٦١ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣ .

والواقع يبين لنا أيضاً أن المسلمين عندما غفلوا عن هذه الحقيقة وركنوا إلى التواكل والتقليل من شأن العلم دارت عليهم الدائرة وتراجعوا حضارياً ، وتوقفوا وسار غيرهم فى طريق العلم دون توقف . ومن هنا فإننا نرى كل يوم شيئاً جديدًا يكتشفه هؤلاء . وأصبحنا نحن المسلمين - للأسف الشديد - عالة عليهم ، وبمعنى آخر أصبحنا زبائن دائمين فى « سوبر ماركت » الآخرين نستهلك كثيراً ولا ننتج شيئاً إلا أقل القليل .

وظن الكثيرون خطأ أن العلم فى الإسلام مقصور على العلم الدينى فقط . وعلى الرغم من هذا الفهم الخاطئ فإن العلم الدينى قد تجمد هو الآخر فى عقول هؤلاء الواهمين على نحو أفقدهم الوعى وشل قواهم الفكرية عن فهم ما يدور حولهم فى هذا الوجود .

وقد اتخذ خصوم الإسلام من ذلك دليلا على أن التمسك بالإسلام يعنى الجمود والتخلف والرجعية . وقد قال بذلك كثير من المستشرقين ومن بينهم المستشرق المعروف إرنست رينان فى مناظرته الشهيرة مع جمال الدين الأفغانى . ومن بين ما قاله فى هذا الصدد : « إن ما يميز المسلم فى الواقع بشكل جوهرى هو كراهيته للعلم والاقتناع بأن البحث فيه باطل ولا جدوى منه ومدعاة للكفر » .

ولا تزال مثل هذه الدعاوى الباطلة تتردد فى وسائل الإعلام الدولية وفى كتابات كثيرين فى الغرب ممن يعتبرون أنفسهم خبراء فى شئون الإسلام والمسلمين .

والسؤال الذى يمكن أن يطرح فى هذا الصدد هو : هل صحيح أن التزام المسلمين بالإسلام هو الذى يعوق تقدمهم العلمى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأى إسلام هذا الذى يجذب المسلمين إلى الوراء فى الوقت الذى يسرع فيه الآخرون الخطى ؟ وهل يطبّق المسلمون بالفعل مثاليات الإسلام ، وبالتالى تحجبهم هذه المثاليات عن أى تقدم علمى ؟ .

إن الحقيقة المرة هى أن ما يقرب من نصف المسلمين فى العالم أميون لا يقرءون ولا يكتبون . فهل يتفق هذا مع مثاليات الإسلام ؟ لقد كان النبى يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . ومن ناحية أخرى

فإن الإسلام دين يعلى من شأن العلم إلى درجة تجعل منه فريضة دينية على كل مسلم ومسلمة ، كما يحث على العمل ويجعل الإيمان الصادق مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعمل الصالح ، كما يتضح ذلك فى عشرات الآيات فى القرآن الكريم .

فهل المسلمون ملتزمون بهذه المثاليات ، ولذلك أدت بهم إلى التخلف العلمى؟ إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا . فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام عدوًا للعلم، وإنما كان وسيظل عدوًا لكل تخلف علمى . وحل مشكلة التخلف لا تكون إلا بالسير قدمًا فى طريق البحث العلمى الذى يؤدى إلى تطوير الحياة بالعلم ومنجزاته .

إن الأمر الذى يؤسف له أن يخرج من بين صفوف المسلمين من يهاجم العلم والعلماء والبحث العلمى وينكر الحقائق العلمية التى توصَّل إليها العلم معتقدًا أنه بذلك يدافع عن الإسلام . والواقع أنه يسىء إلى الإسلام أبلغ إساءة ، ويعطى لخصوم الإسلام المبرر للزعم بعداء الإسلام للعلم والعلماء . وهذا شأن الأصدقاء الجهال الذين يؤذون الإسلام بجهلهم . والأذيَّة من الصديق هى أشد أذيَّة من العدو كما يشير ابن رشد إلى ذلك أيضًا فى سياق مماثل لما نحن بصدده الآن .

وهؤلاء الأصدقاء الجهال يشكلون كارثة بالنسبة للإسلام ، فهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، وبدلاً من أن يستروا جهلهم يقومون بإعلانه على الملأ . وليتهم يكتفون بذلك ، ولكنهم يعلنون أن ما يقولونه هو الإسلام . والإسلام برىء فى واقع الأمر مما يقولون .

وإذا كانت هذه الأفهام الفاسدة تقف دائمًا عقبة فى طريق العلم والبحث العلمى فإنها بذلك تعطى للآخرين ذريعة لاتهام الإسلام كدين بأنه مناقض للعلم ومضاد للبحث العلمى . وقد حدث ذلك بالفعل فى الماضى ويحدث فى الحاضر أيضًا.

ومنذ أكثر من عشرين عامًا سعدت بصحبة الشيخ / محمد الغزالى - رحمه الله - لسنوات فى جامعة قطر . وقد أطلعنى ذات مرة - وهو فى غاية الأسف والحزن - على كتاب كان قد صدر حينذاك فى بعض الأقطار العربية ، يزعم فيه مؤلفه -

المحسوب على العلم الدينى - أنه أتى فى هذا الكتاب بثمانية وأربعين دليلاً من القرآن على أن الأرض لا تدور .

والذى يقرأ هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى تنشر الخرافات بين الناس يعذر المستشرق الفرنسى رينان وغيره من المستشرقين الذين يزعمون أن الإسلام عدو للعلم وللبحث العلمى . ولا تزال مثل هذه الأفكار الخاطئة تنشر على الناس باسم الإسلام ، المظلوم من أتباعه قبل خصومه .

ولنتأمل فى هذا الصدد قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (الإسراء ١٢) . فتعاقب الليل والنهار من آيات الله ، وقد أراد الله لنا بذلك أن تتهيأ أمامنا الفرصة لنبتغى فضلا من ربنا ، أى لنسعى فى الأرض نطلب الرزق من فضل الله ، وفى الوقت نفسه لنعلم عدد السنين والحساب .

وقد وردت الإشارة إلى العلم بالسنين والحساب بالألفاظ ذاتها فى الآية الخامسة من سورة يونس : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾[1] . والتعبير هنا بقوله ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ يشير إلى علم لا مجال فيه للظن أو التخمين ، ويترتب عليه بطبيعة الحال انتظام أمور الناس فى دينهم ودنياهم ، ومن ذلك على سبيل المثال معرفة مواقيت العبادات كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك من الأمور الدنيوية المتصلة بمصائر الأمم والشعوب فى تطورها وتقدمها وبنيانها الحضارى .

وعلى الرغم من هذا البيان القرآنى الواضح فإن هناك من يتجاهل ذلك الذى تشير إليه هاتان الآيتان اللتان تدلان على سنن إلهية تدعونا إلى العلم بهذا الكون

(١) سورة يونس : ٥ .

وتوظيف هذا العلم فى خدمة الحياة والأحياء . ويتمسك هؤلاء بحديث يقول : « **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب** »[1] . ويقع المسلمون سنويا فى حرج التعرف على بداية شهر الصوم من كل عام لرفض الكثيرين منهم الاعتراف بالحسابات الفلكية الدقيقة.

والحق أن الحديث المشار إليه كان مجرد وصف للحال الذى كان عليه المسلمون آنذاك ، ولم يكن أبداً دعوة للأمية وعدم الأخذ بأسباب العلم . وفضلاً عن ذلك فإن الحديث - مهما كانت درجة صحته - لا يمكن أن يكون حاكمًا على صريح القرآن، وإنما الأمر على العكس من ذلك تمامًا .

إن الإسلام - الذى حرر العقل من كل أشكال التقليد - قد أفسح المجال أمام العلم والبحث العلمى إلى أبعد الحدود . ولم يضع حدوداً ولا قيوداً أمام البحث العلمى . والحدود والقيود والعقبات من صنع « الأصدقاء الجهال » ، الذين هم أضر بالإسلام من الخصوم العقلاء ، وصنيعهم مع الإسلام مثل صنيع الدبة التى قتلت صاحبها بحجر كبير ألقته على وجهه بنية إبعاد ذبابة تزعجه فى نومه .

وهؤلاء هم سبب بلاء الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر بما يصدر عنهم من فتاوى تسىء إلى الدين أبلغ إساءة . وما يشهده عالمنا المعاصر من اتهامات للإسلام بالإرهاب والدموية وعداء للعلم وكراهية للتقدم العلمى يرجع إلى هؤلاء ، ولا خلاص للأمة الإسلامية من تخلفها إلا باستقلال الفكر وحرية البحث والاجتهاد .

ومن الحقائق المقررة أن العلم يعد قسمة مشتركة بين الناس جميعًا . ومن هنا فإن العلوم الكونية ليس فيها ما يمكن أن نطلق عليه علمًا إسلاميًا أو غير إسلامى . فالعلم لا وطن له ولا جنسية ولا ديانة . وعلم الكيمياء مثلاً لدى المسلمين هو نفسه لدى المسيحيين أو اليهود أو البوذيين .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، باب الصوم .

ومن نافلة القول أن نؤكد هنا أن كل ما يتعلق بالدين يعد من الخصوصيات لهذه الحضارة أو تلك ، أما ما هو قسمة مشتركة بين كل بنى البشر فلا فرق على الإطلاق . ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد : « اطلبوا العلم ولو فى الصين»، أى : حتى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا ، أو بمعنى آخر : حتى ولو كان فى يد من لا يدينون بدينكم . ومن البديهى أن العلم الذى نطلبه ولو فى الصين لا صلة له بالعلم الدينى ، وإنما هو العلم بجميع أبعاده ، إنه العلم الذى يخدم الحياة التى نعيش فيها . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها[1] - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن العلماء (بالمعنى الواسع للكلمة) هم أخشى الناس لله ، لأنهم الذين يستطيعون فهم سنن الله فى الكون وإدراك روعة الخلق وجلال الخالق . ومن هنا اعتبر النبى عليه الصلاة والسلام مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء[2] .

إن المشكلة - إذن - ليست بين الإسلام والعلم ، وإنما هى مشكلة فئة من الجامدين والجاهلين تريد أن تفسر الدين على هواها ، وتريد أن ترغم الدين على الأخذ برؤاها المتخلفة وتصوراتها المتحجرة . ولابد من التحرر من أسر هذه العقليات والنظر إلى الأمور بنظرة استقلالية بعيدة عن أى تقليد ، « فلا خلاص إلا فى الاستقلال » - كما كان يقول الإمام الغزالى - .

إننا فى حاجة إلى عقليات متحررة من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذات ، ومتحررة من الجهل والتقليد ، عقليات تزن كل شىء بميزان العقل قبل أن تسلم به . فالآفة التى تشد المسلمين إلى التخلف والجهل - كما يقول الشيخ / محمد عبده - تتمثل فى التقليد الأعمى وفى مصادر التثقيف السيئة . ويحضرنى فى هذا المقام العبارة التى ختم بها الإمام الغزالى كتابه (ميزان العمل) حيث يقول :

(١) رواه الترمذى فى سننه ، باب العلم . وابن ماجه فى سننه ، باب الزهد .
(٢) رواه السيوطى فى جامع الأحاديث . .

«ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب (أى : للبحث) فناهيك به نفعًا . فالشكوك هى الموصلة إلى الحقائق . فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

ومن المعلوم أن البحث العلمى فى حاجة إلى مثل هذه الشكوك ، لأنه لا يجوز أن يسلم الباحث بشىء إلا ما تثبته التجارب ، وتقره القوانين العلمية بأسانيد قوية وبراهين قاطعة . ولست أعدو قول الحق إذا قلت إن الجهاد الحقيقى أمام المسلمين فى عالم اليوم ، والذى يعد فريضة غائبة فى عالمنا الإسلامى ، هو الجهاد فى مجال العلم والتنافس فى ميدان البحث العلمى ، أما جهاد الحناجر الذى يملأ الدنيا ضجيجًا فإنه لن يفيد الإسلام والمسلمين فى شىء .

إن سنن الله فى الكون وفى الإنسان تدعونا - نحن المسلمين - أن ننهض بعد طول رُقاد ، ونستيقظ بعد طول سُبات ، ونزيل عن أعيننا وعقولنا الغِشاوة التى حجبت عنا الرؤية السليمة دهورًا طويلة . ولن تتبدل أحوال المسلمين إلا طبقًا لقانون التغيير الإلهى القائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] ، فتلك سنة الله فى خلقه التى لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .

الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر[1]

لقد خلق الله الإنسان وزوده بكل القوى والملكات التى تساعده على أداء دوره المنوط به فى هذه الحياة وهو إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها ونشر الأمن والسلام فى أرجائها .

وعلى رأس الملكات التى أنعم الله بها على الإنسان نعمة العقل الذى به يميز الإنسان الخير من الشر والنافع من الضار والحق من الباطل . وبدون العقل أو بدون استخدامه لا يمكن للإنسان أداء أى دور يفيد الحياة والأحياء . ولكن العقل إذا كان يقوم بدور المشرع والمخطط لحياة الإنسان فإنه فى حاجة إلى أداة تكون مهمتها التنفيذ لما يراه العقل الإنسانى محققًا لسعادة الإنسان .

وهذه الأداة هى الإرادة الإنسانية التى تقوم بالمهمة التنفيذية . ولكن الإرادة الإنسانية ليست مجرد أداة وإنما هى إرادة حرة فى مقدورها أن تستجيب لنداء العقل الإنسانى وفى مقدورها أيضًا أن ترفض وتفعل نقيض ما يريد . وهذا أمر واقع يستطيع كل إنسان أن يلحظه فى نفسه . فالعقل لا يعمل وحده فى تسيير سلوك الناس ، فهناك بالإضافة إلى ذلك رغبات متنوعة وشهوات وأهواء تحاول فرض نفسها على توجهات الناس ، فالصراع مستمر بينها وبين العقل .

وما دامت الإرادة حرة فى أن تفعل وألا تفعل فإن السؤال المهم فى هذا الصدد هو : هل لحرية الإرادة حدود تقف عندها ؟ والسؤال الأهم هو : ما هى طبيعة العلاقة بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية أو القضاء والقدر ؟

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ١/ ١٠/ ٢٠٠٧ .

إنه مما لا شك فيه أن هذه مشكلة معقدة شغلت الفكر الإنسانى بصفة عامة والفكر الدينى بصفة خاصة منذ فجر التاريخ ، ولا تزال تشغل أذهان الناس من مختلف الأديان .

ويذهب كثيرون ممن يريدون أن يريحوا أنفسهم من عناء البحث والتفكير فى هذه القضية إلى أن الإرادة الإنسانية ليست حرة . فالإرادة الإلهية مطلقة ولا تحدها حدود . وقد وضع الله لهذا الكون كله بما فيه الإنسان خطة سيره وبرنامج عمله . وهذا يعنى أن الإنسان مجبر على السير فى إطار الخطة الإلهية ولا يستطيع أن يحيد عنها أو يتصرف تصرفًا يخالفها . إنه - كما يزعمون - كالريشة فى مهب الريح تميلها حيث تميل .

فكل شىء مقدر ومكتوب على البشر ولا حيلة لهم فى رده أو مواجهته . ويتردد هذا الاتجاه حتى فى الأغانى الشعبية مثل « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » وما شابه ذلك . والذين اتجهوا هذا الاتجاه يطلق عليهم مصطلح أصحاب عقيدة الجبر أو الجبريون : فالإنسان لا حول له ولا قوة وكل شىء قدره الله فى الأزل ولا قبل لأحد بمخالفة القضاء والقدر . ألم يقل القرآن الكريم ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] ؟ .

ومن الواضح أن هذا الاتجاه ينبنى على فهم خاطئ للقضاء والقدر ، ومن شأنه أن يشل حركة الإنسان ويعطل طاقاته البدنية والعقلية ويجعله يركن إلى التواكل فى كل شىء .

وحقيقة الأمر أننا نشعر فى نفوسنا بما لنا من حرية الاختيار فى أقوالنا وأفعالنا . ولولا أن إرادة الإنسان حرة فى اختيار الخير أو الشر لكانت التكاليف الأخلاقية والأمر والنهى ضربًا من العبث ، ولما كان هناك معنى لما جاءت به الأديان من الثواب والعقاب والمدح والذم . فالحرية شرط أساسى لكل الأفعال الأخلاقية ، وما يتعلق بها من مقاصد ونوايا ومواقف إرادية .

(١) سورة الإنسان : ٣٠ .

ولا يمكن أن نتحدث عن أخلاقيات إلا إذا كان الإنسان يتمتع بالحرية التى تجعله قادرًا على عمل الخير وترك الشر أو العكس . ولو لم نكن أحرارًا فى الاختيار بين الخير والشر فلا يمكن أن نحاسب على تصرفاتنا ، كما لا يمكن أن نُلام عليها .

وعلى كل حال فإن الحرية - والحرية الواعية - هى الأساس الذى ترتكز عليه الأخلاق ، ولو لم تكن هناك حرية لما أمكن أبدًا تحديد المسئولية ، ولما كان هناك فعل يمكن أن نقول عنه إنه فعل أخلاقى ، وفعل آخر نصفه بأنه فعل غير أخلاقى .

ولا نريد هنا أن ندخل فى تفاصيل الخلاف العريض الذى ثار بين أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار ، ولكننا نود أن نلفت النظر فحسب إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نوعين من المخلوقات أحدهما مسخر لا إرادة له ولا اختيار ، وليس أمامه إلا الطاعة والامتثال ، ويتمثل هذا النوع فى كل مخلوقات الله عدا الإنسان .

أما النوع الثانى وهو الإنسان فإنه مخلوق مكلف ، والتكليف مسئولية . والمسئولية لا تقوم إلا على دعامة من الحرية فى الفعل أو الترك حتى فى أمور العقيدة - كما يقول القرآن الكريم - : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] ويترتب على ذلك بطبيعة الحال قضية الثواب والعقاب التى يشير إليها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾[2] .

صحيح أن الله يعلم كل ما سيقوم به كل فرد من خير أو شر ، ومن إيمان أو كفر ، ولكن علم الله هنا ليس علم إكراه على الفعل أو الترك ، وإنما هو علم أزلى كاشف بما سيقع من هذا الشخص أو ذاك . أما وقوع الفعل نفسه أو عدم وقوعه ، فهو فى أساسه من صميم حرية الشخص نفسه . وليس فى هذا ما يطعن فى القضاء والقدر من قريب أو من بعيد ، فكل شىء قد قدره الله فى الأزل ، وهذا أمر لا جدال فيه . ولكن خلق الإنسان بإرادة حرة ، هو أيضًا من بين ما قدره الله فى الأزل . وهذه

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ٤٦ .

نقطة فى منتهى الأهمية لإدراك عدم وجود أى تناقض بين القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية .

وفى واقع حياتنا العملية نعترف جميعًا بأثر التربية والتثقيف والتهذيب فى تغيير سلوك الإنسان ، كما أننا نضع قوانين ونعاقب المسىء ونكافئ المحسن ، فإذا كان الأمر هو أن الإنسان مجبر لا حرية له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، فليس هناك - إذن - أى داع للتربية والتهذيب أو الوعظ والإرشاد ، أو وضع القوانين أو الثواب والعقاب ، لأن ذلك كله يفترض أن هناك ذاتًا لها إرادة حرة ، وأنها قادرة على الاستجابة أو عدم الاستجابة .

والقول بالجبر فيه سد لجميع منافذ الأمل فى حياة الإنسان ، وبدون الأمل لا يستطيع الإنسان أن يتقدم فى حياته أو يتطور فى معارفه ، بل إنه سيجمد ويتقوقع، وبذلك تقف الحياة ويقنع الناس بالركون إلى التواكل والاستسلام .

وقد أعطانا الدين الأمل وغرس فى نفوسنا الثقة فى القدرة على التغيير إلى الأفضل ، مبينًا لنا أن هذا التغيير لن يسقط علينا من السماء ، وإنما يتعلق أولاً بإرادتنا ذاتها التى تملك هذا التغيير . وهل هناك فى هذا الصدد أصدق من هذا القانون الإلهى الثابت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

فقد أسند الله سبحانه وتعالى التغيير للإنسان كما أسند إليه تزكية النفس أو إفسادها فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[2] .

وقد كان الشيخ محمد عبده من أشد المحاربين لعقيدة الجبر لأنها تقوم فى واقع الأمر على إلغاء شخصية الإنسان . وهى عقيدة تتساوى فى ذلك مع التقليد الممقوت الذى يلغى عقل الإنسان ، فالجبرى والمقلد كلاهما تقوم حياته على الصدفة وكلاهما يتهاون فى ترك مجال الحياة لغيره ، فى حين أن الإسلام يريد أن يكون المؤمن لبنة

(١) سورة الرعد : ١١ .

(٢) سورة الشمس : ٩ ، ١٠ .

إيجابية فى بناء المجتمع لا يتواكل ولا يكون سلبيًا . فالسلبيون أجدر بهم - كما يقول الشيخ : « أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم » .

ويصحح الشيخ محمد عبده الفكرة الخاطئة عن القضاء والقدر قائلاً : « الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة » ومن هنا فإن ربط عقيدة الجبر بالقضاء والقدر يعد من قبيل الربط بين النقيضين .

إن الأمر الذى ينبغى أن يوضع فى الاعتبار عند بحث هذه القضايا الشائكة أنه لا يجوز أن نقتطع بعض آيات من القرآن الكريم من سياقها لنبرهن بها على صحة هذا الرأى أو ذاك وإنما ينبغى أن نفهم كل الآيات التى تتحدث فى الموضوع الواحد لندرك أبعادها ونعى ما ترمى إليه ، بالإضافة إلى تحكيم عقولنا فى فهم النصوص حتى لا نضل السبيل . وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نؤمن ببعض الآيات ونتجاهل الآيات الأخرى فى قوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[1] ؟ .

* * *

(١) سورة البقرة : ٨٥ .

قل إنما أنا بشر مثلكم[1]

منذ أكثر من قرن من الزمان حذر الشيخ / محمد عبده من المصادر السيئة للتثقيف التى تؤذى العقول بما تنقله من جراثيم فكرية وأوبئة ثقافية تهدم العقول وتقضى على صحة الفكر والثقافة . ومن الأمثلة على ذلك - كما يقول الشيخ - كتب الأكاذيب الصرفة وكتب الخرافات وأمثالها من كتب تخدر العقل وتشل فاعليته .

وقد خاض العديد من المصلحين وقادة التنوير فى بلادنا فى الماضى والحاضر معارك من أجل تنوير العقول وتثقيف الأذهان ، حتى تنهض الأمة وتتفرغ للبناء والتعمير ، وتخطو خطوات ملموسة فى مجال التقدم والرقى ، وتسابق الآخرين فى التجديد المتواصل للمجتمع والنهوض بالمواطنين .

ولكن الطريق لم يكن دائمًا معبَّدًا أو مفروشًا بالورود والرياحين . فبين الحين والآخر كانت تظهر فى الطريق بعض الأشواك التى تعطل مسيرة التقدم وتشد المواطنين إلى التخلف وتنشر بينهم ظلام الجهل بدلاً من نور العلم .

وفى الأسابيع الأخيرة صدم المجتمع فى مصر وفى العالمين العربى والإسلامى بما صدر فى مصر - صاحبة الريادة فى العالم الإسلامى - من فتاوى وآراء دينية تعد كارثة بكل المقاييس . فمن إرضاع الكبير إلى التبرك بشرب بول النبى الكريم والتبرك بنخامته وغير ذلك من فتاوى وآراء طيرتها وكالات الأنباء العالمية ونشرتها صحف مختلفة فى أوروبا وأمريكا . وقد تلقيت العديد من المكالمات الهاتفية من بلاد عديدة مستنكرة ومندهشة أن تصدر مثل هذه الفتاوى والآراء من مصر بلد الأزهر الشريف ومن بعض أبناء الأزهر .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٧ .

وقد أساءت هذه الفتاوى المأساوية أبلغ إساءة إلى الإسلام ونبيه أكثر مما فعلته الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية ، لأن الإساءة هذه المرة صادرة من بعض علماء الإسلام الذين يعلنون الرأى الإسلامى للناس ، وليست من خصوم الإسلام . والإساءة من الصديق أشد وأنكى من الإساءة من العدو كما يقول فى ذلك " طرفة ابن العبد " أيضًا :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وقد تكون مثل هذه الفتاوى والآراء موجودة فى بعض الكتب القديمة ، ولكن هذا لا يعطيها أى مصداقية ولا يجوز أن تكون القاعدة فى ذلك هى معرفة الحق بالرجال مهما طار صيتهم وانتشر بريقهم فى وقت من الأوقات . فالمعيار الذى يجب أن يحتكم إليه فى مثل هذه الأمور هو العقل الإنسانى والفطرة الإنسانية الصافية والذوق العام السليم .

والإسلام - كما هو معروف - دين العقل والفطرة السليمة . ولا يعقل أن تشتمل تعاليمه السامية على شئ يصادم العقل والفطرة والذوق العام . وكتب التراث فيها الغث وفيها السمين ، فيها المقبول وفيها المرفوض . وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين أن نعيد نشر ما تشتمل عليه من غثاء .

وقد أدرك ذلك الثقات من علماء المسلمين على مدار التاريخ الإسلامى ، وكانوا يعملون عقولهم فيما ينقل عن الأسلاف ، ولا يأخذون أى شئ على علاته إلا بعد فحصه واختبار مدى صحته واتفاقه مع العقل والمنطق ، ووضعوا فى ذلك القواعد التى على أساسها يقبلون ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون ، حتى إذا كان الأمر يتعلق بنص دينى يوحى ظاهره بمخالفة العقل فإنه لا يجوز قبول هذا الظاهر وإنما يجب تأويله حتى يتفق مع العقل . وفى ذلك يقول الإمام الغزالى « فإن لنا معيارًا فى التأويل وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك » وفى السياق ذاته يقول الشيخ محمد عبده : « اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل». وهذا ما كان يفعله أيضاً كبار علمائنا ومفكرينا على مدار التاريخ .

والمفروض أنه كلما تقدم بنا الزمن كلما ازداد الفكر استنارة وفهمًا وفقهًا ، واتسعت أمامه مساحة العلم النافع وتقلصت مساحة الجهل والجمود والانغلاق . والمفروض أيضًا أنه يجب على المتحدثين منا باسم الدين أن يدركوا أننا نعيش اليوم فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية ، وأن الدنيا قد تغيرت وأن الأحوال قد تبدلت ، وأنه لم يعد مقبولاً ولا معقولاً حشو أذهان جماهير المسلمين بالغثاء من القول ، والسقيم من الفكر ، والباطل من الأقاويل التى ما أنزل الله بها من سلطان .

إن فتوى إرضاع الكبير - كما شرحها صاحبها بالتفصيل الممل - هى دعوة مفتوحة لنشر الإباحية فى المجتمع ، وهدم للقيم المتعارف عليها بين الناس . ولا أعتقد أن من يقول بهذه الفتوى يقبل تطبيقها على إحدى قريباته مع زميل لها فى العمل . والحديث على النحو الذى بنيت عليه هذه الفتوى لا يجوز العمل به على الإطلاق ، وذلك لمخالفته الصريحة للعقل والمنطق ولتعاليم الإسلام وقيمه . أما ما نشر فى ذات التوقيت من التبرك بشرب بول الرسول ومسح الوجوه بنخامته فإن ذلك إساءة بالغة للنبى عليه الصلاة والسلام .

إنه لا جدال فى أن النبى يعد مثلاً أعلى فى أخلاقه وسلوكه فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه - كما جاء فى حديثه هو عن نفسه - . ومن هنا جعله الله أسوة حسنة للمسلمين جميعًا فى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ، ولا جدال أيضًا فى أنه قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة على أكمل وجه . فهو الإنسان الكامل وهو المثل الأعلى وهو القمة التى لا يرقى إليها البشر . أو كما يقول الإمام البوصيرى فى مدحه : « يا سماء ما طاولتها سماء » .

ولكن الله أراد له أن يكون - على الرغم من ذلك كله - إنسانًا ، وأن يظل بشرًا يعيش بين الناس ، يأكل كما يأكل الناس ، ويشرب كما يشربون ويتزوج وينجب

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

البنين والبنات ، وتلك هى سنته عليه الصلاة والسلام ، وكما يقول فى ذلك : « **فمن رغب عن سنتى فليس منى** »[1] .

وقد ظل الرسول بشرًا منذ مولده حتى وفاته عليه الصلاة والسلام تجرى عليه قوانين البشر . ولا يجوز إخراجه من نطاق البشرية إلى نطاق آخر . فهذا لم يرده الله سبحانه فى القرآن الكريم ، ولم يرد عن الرسول نفسه شىء من ذلك .

ونحن نسىء إلى هذه الشخصية العظيمة أبلغ إساءة إذا أردنا إخراجه عن طور البشرية ونسبنا إليه أن إفرازاته الجسمية لا تسرى عليها القوانين التى تسرى على جميع البشر، وأنه يجوز التبرك بها وتعاطيها إلى درجة تصل إلى حد شرب بوله ومسح الوجوه بنخامته وما شاكل ذلك من أخبار مسيئة إلى شخص النبى عليه الصلاة والسلام وإلى الإسلام نفسه . ومثل هذه الأخبار لا يمكن قبولها لا عقلاً ولا شرعًا ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون أخبارًا صحيحة حتى وإن تناقلتها الكتب ورواها الراوون ، وذلك لسبب بسيط وهو أن العقل يرفضها والنفوس تعافها والذوق العام السليم والفطرة الإنسانية الصافية لا تقبلها بأى حال من الأحوال .

وتأكيد القرآن الكريم على أنه عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[2] فيه أبلغ رد على محاولات إخراجه من إطار الطبيعة البشرية . والآية نفسها حين تؤكد ذلك تنبه إلى ما يمتاز به النبى عن غيره من البشر ، وتلك الميزة هى أنه الوحيد الذى يوحى إليه . والإمام الرازى يقول فى تفسير هذه الآية : « أى لا امتياز بينى وبينكم فى شىء من الصفات إلا أن الله أوحى إلىَّ أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد » . لقد أراد الله له - كما أراد لكل الأنبياء - أن يكونوا بشرًا تجرى عليهم كل قوانين البشر . وقد اعتاد الناس فى كل الأزمان أن يضيفوا إلى الشخصيات العظيمة من القدرات والصفات ما يخرجهم عن طور البشرية . وهذا تزيّد من البشر انطلاقًا من شدة

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

حبهم لهذه الشخصية أو تلك . فيسبح الخيال بهم كل مذهب ، وهذا أمر لم يرده الله تعالى لنبيه . ومن هنا كان هذا التأكيد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ولم يكتف بالقول : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ﴾وإنما جاء الحرص فى النص على المثلية ﴿مِّثْلُكُمْ ﴾ ، يجوز عليه كبشر ما يجوز عليكم من صفات البشرية ولوازمها .

إننا ننزه رسولنا الكريم الذى نحبه ونجله ونقدره ونضعه - كما وضعه ربه - فى أرقى مكان - ننزهه عن إخراجه من طور البشرية ، فسريان القوانين البشرية عليه لا ينقص من قدره شيئًا ، فعلى الرغم من سريان كل هذه القوانين عليه فإنه لم يكن يومًا أسيرًا لشهوة أو عبدًا لمتعة دنيوية ، وإنما سما وارتفع فوق كل الشبهات والشهوات رغم ما يشده إلى الأرض - كغيره من الناس - من رغبات .

والسؤال الذى ينبغى أن يطرح فى هذا الصدد هو : ما الفائدة التى تعود على الإسلام والمسلمين من إثارة هذه الفتاوى؟ هل تساعد فى تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام فى الإعلام الدولى ؟ وهل انتهت كل مشاكل المسلمين ولم يعد أمامنا إلا البحث فى الكتب القديمة لاستخراج كل ما هو غريب ومستنكر من الآراء ؟

إننا نظلم الإسلام ظلمًا بينًا ونفترى على رسوله الكريم بهذا الغثاء الذى ينشر على الناس باسم الدين ، والدين من كل ذلك برئ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

الإيمان والحب[1]

ربما يثير عنوان (الإيمان والحب) لدى البعض شيئًا من الغرابة والدهشة لما يرتبط فى أذهانهم من أفكار تختزل الحب فى إطار أرضى ضيق لا صلة له بالروحانيات ، الأمر الذى لا يتفق بأى حال من الأحوال مع سمو هذه القيمة العظيمة . ولكننا نبادر إلى القول بأن أعلى درجات الحب هى الحب المرتبط بالإيمان . وهذا ما سوف يتضح من خلال ما سنعرضه فى السطور التالية .

إن التكوين الإلهى للإنسان - الذى خلقه الله فى أحسن تقويم - يشتمل على الكثير من الآيات الباهرات التى جعلها الله من دلائل قدرته . وتأمل هذه الدلائل والبحث فيها بإخلاص من شأنه أن يساعد الإنسان على التوصل إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، وهو رب العالمين ، مصدقًا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2] .

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة فإنه يكون قد وصل إلى أعلى درجات اليقين العقلى والإيمانى معًا . وهنا تتعانق المعرفة العقلية مع المعرفة الروحية . وهذا يعنى أن الإنسان فى تكوينه ليس مادة أرضية فقط ، وليس عقلاً يبحث عن الأدلة والبراهين فحسب ، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك صاحب حياة روحية متجذرة فى أعماق نفسه ولديه عواطف ووجدانيات . وكلها أمور تختلف عن عمليات التصور والتفكير التى هى من خصائص العقل . والعواطف تعد تجارب وجدانية . وقد اعتاد الناس أن يطلقوا وصف « عاطفى » على الإنسان الذى ينفعل بسرعة

(١) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٨ .
(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

ولا يستطيع أن يسيطر على مشاعره . ولكن هذا المعنى السلبى لا يعبر تعبيرًا صادقًا عن « العاطفة » فى صورتها الحقيقية .

إن العاطفة من شأنها أن تدفع الإنسان إلى سلوك معين إزاء إنسان أو حيوان أو نبات أو مجموعة من الناس أو الأفكار . وذلك مثل عاطفة الحب أو الكره . فقد يتعاطف الإنسان مع شخص آخر أو مع فكرة من الأفكار ، وقد ينفر من هذا الشخص أو تلك الفكرة . وقد لا تكون هناك أسباب منطقية للتعاطف أو النفور ، ولكن هناك شعورًا باطنيًا وإحساسًا داخليًا يدفع المرء إلى هذا الجانب أو ذاك . وعلى رأس العواطف التى تجيش فى نفس الإنسان عاطفة الحب التى تعد أرقى العواطف وأسماها .

وعلى الرغم من أن هذه العاطفة قد أصبح لها عيد يحتفل به الناس فى معظم دول العالم ، فإن الحديث عنها لا يزال فى حاجة إلى شئ من الوضوح فى الأذهان . فالإنسان منا يحب ويكره ويفرح ويحزن ، وهذه كلها حالات طبيعية وليست أمرًا شاذًا ، أما الشاذ فهو تبلد الإحساس وتحجر العواطف وانغلاق القلوب . ومثل هؤلاء يصفهم القرآن الكريم بأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة .

وفى كتابه « إحياء علوم الدين » يشرح لنا الإمام الغزالى بالتفصيل عاطفة الحب متدرجًا فى شرحها من أضيق دائرة إلى أن ينتهى بها إلى عالم رحب حيث تجد فيه هذه العاطفة منتهى كمالها متمثلة فى محبة الإنسان لله . وهذا هو ما قصدنا إليه من الربط بين الإيمان والحب فى عنوان هذا المقال . وقد مهد الغزالى لذلك بالحديث عن هذه العاطفة وأقسامها والأسباب التى تدعو الإنسان إلى الحب فى هذه الحياة .

وتحت عنوان « بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله » يذهب الغزالى إلى القول بأن المحبة لا تتصور إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، لأن الحب من خصائص الحس المدرِك . والحب لديه هو عبارة عن ميل

الطبع إلى الشئ الذى يبعث على اللذة . فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقًا . والحب أنواع : فلكل حاسة من الحواس إدراك لبعض الموجودات ، ولكل واحدة منها لذة فى بعض المدركات ، ولهذا يميل الطبع إليها ، وتعد من المحبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين فى إدراك المبصرات الجميلة والصور البديعة ، ولذة الأذن فى النغمات الجميلة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، وهكذا .

وإن كان هذا هو الشأن فى المدركات الحسية فإن مدركات العقل والقلب أقوى من مدركات الحس « فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكًا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار » .

ويبين الغزالى أنه لا يخفى أن الإنسان يحب نفسه ، وقد يحب غيره لأجل نفسه . فحب الذات يقع فى بؤرة اهتمام الإنسان . وهذا ليس أمرًا مستغربًا ، بل يعد أمرًا طبيعيًا ، ولكنه يبدو شاذًا حينما ينغلق الحب على الذات وحدها ولا يتسع لغيرها . فهنا تكون الأنانية المفرطة البغيضة . فالمحبوب الأول للإنسان إذن هو ذاته وكمالها ودوامها ثم يأتى بعد ذلك حبه لشريك حياته وحبه لماله وولده وعشيرته وأصدقائه.

ولكن دائرة الحب تتسع أيضًا لأمور أخرى يحبها الإنسان لذاتها وليس لأنها تعد تكميلاً لذاته . وهذا هو الحب الحقيقى . فالجمال محبوب عند من يدرك الجمال ، بل يمكن القول بأن الجمال محبوب بالطبع لذاته . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الحب والجمال صنوان لا يفترقان . فالإنسان الذى يمتلئ قلبه بالحب يرى الجمال فى كل شئ ، ويشع الحب من قلبه إلى كل الكائنات من حوله . وإذا كان إيليا أبو ماضى يقول :

والذى نفسه بغير جمال لا يرى فى الوجود شيئًا جميلا

فإنه يمكن القول أيضًا بأن الذى نفسه بغير حب لا يرى فى الوجود إلا القبح والبؤس والكراهية والبغضاء .

وإذا كان الجمال محبوبًا بالطبع لذاته - كما سبق القول - فإن الغزالى يرى أنه إذا ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبًا عند من ينكشف له جماله وجلاله مصداقًا للحديث الشريف : « **إن الله جميل يحب الجمال** »[1] .

وجمال كل شئ أو حسنه يعنى أن يكون حاصلاً على كماله اللائق به . والجمال هنا بطبيعة الحال ليس جمالاً ظاهريًا ، وإنما هو جمال تتوافر فيه شروط الكمال الذى يليق به . وقد تتأكد المحبة بين شخصين لا بسبب جمال ظاهر ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما جاء فى الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة . فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف »[2] .

ويمكن تلخيص أسباب الحب - فى نظر الغزالى - فى خمسة أسباب على النحو التالى :

أولاً : حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه .

ثانيًا : حب الإنسان لمن أحسن إليه .

ثالثًا : حب الإنسان لمن كان محسنًا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنًا إليه .

رابعًا : حبه لكل ما هو جميل فى ذاته .

خامسًا : حبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن .

ويذهب الغزالى إلى أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى . ومن هنا فإنه لا يستحق المحبة فى الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى . ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى . وإن أجل اللذات وأعلاها يتمثل فى معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، وأنه لا يتصور أن يؤثر إنسان عليها لذة أخرى ، اللهم إلا من حرم هذه اللذة . ولذلك يؤكد القرآن الكريم أن المؤمنين

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، باب الإيمان .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

وحدهم هم الأشد حبًا لله كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم اشتمال الذات الإلهية على جميع الكمالات اللائقة بها .

وهكذا يتدرج الحب لدى الناس فى دوائر عدة ، ولكنها لا تكتمل إلا إذا انتهت إلى خالق الوجود ومقلِّب القلوب . وهذا هو الحب الحقيقى الذى ينبغى أن يُؤْثِرَهُ الإنسان على كل حب سواه . ومن جانب آخر فإن هذا الحب من شأنه أن يضفى الحب والجمال على كل ما عداه . فحب الخالق يتبعه بالضرورة حب مخلوقات الله من بشر وحيوان ونبات وجماد ، لأنها جميعًا دلائل على قدرته وعظمته سبحانه وتعالى .

وحب الخالق لا يعنى بالضرورة رفض دوائر الحب الأخرى التى تدور حولها حياة الإنسان فى دنياه ، وإنما المرفوض هو أن تحجب هذه الدوائر المختلفة عن الإنسان « الحب الحقيقى » والذى يتمثل فى حب الله تعالى .

والأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن الحب بين الله والإنسان ليس حبًا من جانب واحد فقط ، أى من جانب الإنسان ، وإنما هو حب متبادل بين الخالق والمخلوق . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله فى خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** »[2] . وإذا أحب الله عبدًا جعل أهل السماء يحبونه وجعل له القبول فى الأرض ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[3] . وكل إنسان يلجأ إلى الله تائبًا من ذنوبه راجيًا رحمته وغفرانه فإن الله

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه ونصه : « إذا أحب الله العبد نادى جبريلَ إن الله يحب فلانًا فأحبه . فيحبه جبريلُ فينادى جبريلُ فى أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

يـشمله بمحبتـه كـما جـاء فى القـرآن الكـريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

ومحبة الله لعباده تتمثل فى رحمته بهم . فهو سبحانه أرحم بعبـاده مـن رحمـةالأم بوليدها . وإذا كان الحب والقـسوة نقيـضان لا يجتمعـان فكـذلك الرحمـة والقـسوة ضدان لا يلتقيان أبدًا .

إن الحب هو إكسير الحياة . وحياة بلا حب لا معنى لهـا . وإشـاعة الحـب بـين الناس يجعلهم يقبلون على الحياة والعمل والبذل والعطاء والتـضحية والفـداء . وإذا ارتبط هذا الحب بالله فإنه كفيل بتصحيح مسار الإنسان على الأرض والسير بالحيـاة فى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهو الطريق الذى يـؤدى إلى سـعادة الإنـسان فى الدنيا والآخرة على السواء .

* * *

(٤) سورة البقرة : ٢٢٢ .